كلمة لمتخرجي الكلية

[انشأ متخرجو كلية بيروت الجامعيون في القاهرة نادياً يجمع شملهم . وفي اواخر شهر فبراير الماضي حضر الدكتور هورد بلس رئيس الكلية من بيروت لزيارتهم فاحبوا له ليلة ساهرة في مسهد برنتانيا حضرها سعادة عثمان باشا مرتضى من قبل الجناب الخديوي وسعادة اسمعيل سري بك النائب عن نظارة المعارف الذي وجمهور غفير من الوجوه والاعيان وخطبت فيه الخطب بالعربية والانكليزية ومنها الخطبة التالية لسعادة سعيد باشا شقير احد متخرجي الكلية]

سادتي وسيداتي

لقد حدّدوا لي للكلام عشر دقائق فدل ذلك على ما عند متولّي امر هذا النادي من الفراسة فانهم بهذا التحديد رحموني عمّا منهم بعجزي ورأفوا بكم فلم يكلفوكم الاصغاء اليّ اكثر مما تحتمله آداب المجاملة فاستحقوا اسداء الشكر منا كلينا

ولا ادري ما الذي حملهم على انتخابي — اصابوا في انتدابهم الدكتور بلس فانهُ استاذ الكثيرين من متخرجي الكلية وهو خطيب مشهور فيستطيع ان يفيدنا بما عندهُ من العلم الكثير والخبرة الواسعة في العالم واصابوا ايضاً للاسباب عينها بانتداب رئيسنا الدكتور بلس . اما انا فقد اخطأوا في انتدابي . والذي اظنهُ ان الباشاوية هي التي جنت عليّ وعليكم فظنوها كالدراهم تنزل على لسان صاحبها الفصاحة وعلى قلبهِ الحكمة على حد قول الشاعر

فهي اللسان لمن اراد فصاحةً وهي الجنان لمن اراد جدالا

وان من قضى زهاء ربع قرن من عمرهِ منفرداً في غرفتهِ محاولاً مع روّسائهِ ان يجعل من اواحد اثنين ومن الاثنين اربعة دون ان يكون احول او يجعل الناس حولاً في بلاد لا تفيض خيراتها فيض الماء ليعسر عليهِ الكلام على منبر الخطابة في مجالس الانام او الاهتمام بمواضيع خارجة عن دائرة الارقام وهذه قُسم لها ان تكون خالية من اللذة لدى اكثر الناس ولا سيما في مثل هذا المقام

فما الذي آتيكم اذاً بهِ وقد وقفت مثل هذا الموقف الحرج — سامح الله الذين جرّوني اليهِ

قرأت في احد الكتب منذ زمن ان اسهل شيء على الانسان ابداء النصيحة وانتقاد الناس وأسهل الامرين الاول — وهذا الذي طرق فكري حينما الحّ عليّ بعض اعضاء هذا النادي بتعيين موضوع كلامي واخبرتهم انهُ كلمة لمتخرجي الكلية

معظم متخرجي هذه المدرسة التي فيها نشأت والتي لها الفضل الاكبر عليّ وعلى كثيرين

غيري هم سوريون ولذلك فان كلمتي هذه موجهة بنوع خاص اليهم وانى سواهم من السوريين المتخرجين في غير الكلية الذين جاؤوا هذا القطر للاشتغال والمعيشة فيه

اهم شيء آلمني منذ شببت ولا يزال يؤلمني حالة السوري في بلاده وفي دار غربته . فنحن في سوريا وغيرها من الولايات العثمانية عثمانيون ولكن لم تكن لنا حتى الامس كامل حقوق العثمانيين بل كان ينظر الينا في بلادنا كاجانب عن البلاد

وتأتي مصر فتستوطنها وتتجر فيها وتخدم حكومتها وتخلص لها قلباً وقالباً فتضع ثروتنا وجزء عمرنا في عقارها وتقضي حياتنا على ضفاف نيلها مشاركين اهلها في سرائهم وضرائهم لنا ما لهم وعلينا ما عليهم ومع ذلك ينظر البعض الينا والى اولادنا الذين يولدون فيها كأننا اجانب عنها

نعم لقد تغير مركز السوريين هنا عما كان عليه قبلاً نظراً الى ازدياد الثقة باخلاصهم واخذ يتحسن ايضاً في البلاد العثمانية فبدأت حكومة الاستانة تشرك السوريين وغيرهم من العناصر غير التركية في ادارة مهام البلاد ولكنها لا يزال يفتقر الى التحسين وتحسينها يتوقف علينا نحن السوريين بقدر ما يتوقف على الذين في يدهم زمام الامور في الاستانة ومصر

سادتي : لقد جئت على ذكر هذا الامر ليس لان الاجتماع يقتضيه او لاني احب الدخول في المواضيع التي ترمي الى السياسة ولكني أشرت اليه لانه عظيم التأثير في احوالنا المادية والادبية سواء كنا في بلادنا او في هذه البلاد او في غيرها من البلدان التي تذهب اليها

فان دون نجاح السوري من جراء مركزه هذا سداً اي سد . سداً يؤثر في تجارته وصناعته وزراعته وراحته من وجوه عديدة لا يسع المقام ذكرها سواء اقام في بلاده الاصلية او في هذه البلاد او في اميركا او في غيرها من البلدان التي يهاجر اليها . ويزداد هذا التأثير ظهوراً كلما ارتقى حاله واخذ يناظر من هم ذوو شأن ووراءهم امة حية ويشعر أن ليس له كل ما لهم من الحقوق ولا الوسائل او الدوافع التي لهم من امتهم على الترقي في ميدان الحياة

وليس غرضي ان نسعى لتصير امة مستقلة ذات حول وطول كلا ولا انا بلتفت الى ذلك مطلقاً فلا يلتبسن عليكم مرادي . فانا اذا استمرت دولتنا سائرة في سبيل الارتقاء كما نؤمل وعوملنا بالانصاف كنا اهنأ عيشاً واسعد حالاً وامنع جانباً كجزء منها مما لو تركنا وشأننا او افلتنا من يدها . ولكنني اتيت المامّاً على ذكر مركزه السياسي لاثبت في ذهن كل سوري اننا ضعاف من هذا الوجه وانه لا يمكننا ان نعيش — واقصد بالمعيشة المعنى الحرفي — سواء كنا في هذا القطر او سواه — الاّ اذا اتحدنا اتحاداً قومياً وساعد الواحد منا الآخر جهده ومن كل قلبه واعتمدنا على انفسنا فرقينا معارفنا واخلاقنا واشتغلنا الليل والنهار واخلصنا كل

الاخلاص للبلاد التي تكون فيها ولسكانها لكي يرتاحوا الى معاملتنا ويعتمدوا علينا فتسهل عليهم مشاركتنا لهم في خدمة حكومتهم وتهون علينا التجارة والصناعة والزراعة والاشغال الاخرى التي نتخذها بينهم

والمسؤولية على المتعلمين منا كبيرة فان المهاجرة من سورية لم تقتصر عليهم بل تناولت غيرهم ممن اضطرتهم حالتهم الى تركها إما طلباً للرزق او لزيادة ثروتهم في بلاد ارقى من بلادهم حالاً واوسع منها مجالاً فاصبح منا في كل بلاد حلّنا فيها جالية مختلفة مؤلفة من متعلم راقٍ وغير متعلم — وحكم القوم فينا واحترامهم لنا متوقف على اخلاق مجموعنا وحالتنا العمومية لا على حالة فرد او فردين — وعليه فعلى المتعلمين منا ان يكونوا مثالاً في آدابهم واخلاقهم ومعيشتهم وسيرتهم ليقتدي بهم اخوانهم غير المتعلمين فترتقي حالة مجموعنا ويزيد احترامنا واكرامنا

قلت يجب ان نرقي معارفنا واخلاقنا لاننا بالاخلاق الحميدة والمعارف الراقية نتمكن من القيام بما يطلب منا وننجح فيه سواء دخلنا في خدمة الحكومة او تعاطينا عملاً آخر من الاعمال . ويجب ان لا يتكل احد منا في عمله على استعداده الفطري وما درسهُ في المدرسة فقط مكتفياً بهما ومنصرفاً في اوقات الفراغ الى الملاهي والملاعب فانهُ بذلك يقضي على مستقبله وعلى مستقبلنا معهُ بل يجب ان يزيد معارفهُ بكثرة الدرس ويجدّ ويجتهد بحيث يشعر مستخدموهُ بشدة احتياجهم الى معارفه واختباره فيحتفظون به ويرقونهُ فيفيد ويستفيد . هذا هو سر نجاح الذين نجحوا في العالم كله ولاسيما الذين لم يولدوا في ثروة طائلة وهو ميسور لمن اراد وثبت في الميدان

ولقد ذكرت الاستخدام في الحكومة على الخصوص لان المتعلمين من ابناء وطني ولاسيما متخرجي الكلية يأتون القطر المصري والتوظف بغية كثيرين منهم يطلبونهُ اضطراراً او اختياراً كلٌّ حسب احواله الخصوصية . ولكن نصيحتي الخالصة هي ان لا يقصدوهُ قبل سواهُ من الاعمال لانهُ لا يتيسر الاَّ للقليلين منهم ومجال الترقي فيه محدود واذا اتّسع لواحد او اثنين او ثلاثة منهم فلا يمكن ان يتّسع للجميع

ولا يغرنَّ الواحد منا ما يراهُ من البداءة الحسنة في هذا السبيل فان بعد هذه البداءة عند منعطف الوادي القريب جبلاً ايَّ جبل ينصب للموظفون خيامهم في سفحه محاولين ان يصعدوا فيه فلا يتهيأ ذلك الاَّ للقليل منهم واما الباقون فيمضي عليهم اليوم بعد اليوم والعام بعد العام مؤملين فلا يدركون ما أمّلوهُ ولا تسهل عليهم العودة ليسيروا في سبيل آخر اذ يكون معظم العمر قد مضى ومضى معهُ نشاط الشباب فيبقون حيث هم في يأس أليم

كان اسلافنا من قبل الميلاد بخمسة آلاف وخمسمائة سنة تجاراً مقتدرين وصناعاً حاذقين وفاقوا في زراعتهم واستثمار اراضيهم كما فاقوا في صناعتهم وتجارتهم فانهم اولـــ من انشأ السفن الكبيرة وسلك التجار قصدوا تجارتهم على سواحل البحر المتوسط كلها ودخلوا الاوقيانوس الاتلانتيكي وتجاوزوهُ الى بحر البلطيق فاتوا من اسبانيا بالذهب ومن غاليا وبريطانيا بالقصدير وداروا حول قارة افريقية ودخلوا قلبها بقوافلهم فاتوا منها بالعاج والعبيد والافيال ووصلوا الى بلاد الهند وسيلان يطلبون الجواهر ويتجرون بالبضائع الكثيرة وراجت مصنوعاتهم الفضية والذهبية في اقطار المسكونة وامتازوا بعمل الزجاج وتلوينهِ بالاكاسيد المعدنية ونسج الاقمشة وتطريزها وصبغها بالارجوان . واتقنوا حرث اراضيهم ففاضت لبناً وعسلاً وانهالت عليهم الثروة من كل الجهات وبلغوا مبلغاً عظيماً من الرفاهة ورغد العيش حتى قيل انهم كانوا يصنعون آنية منازلهم من الذهب ومراميي مراكبهم من الفضة

ولقد ورثنا منهم هذا الميل الى الصناعة والتجارة والزراعة ولا تزال عندنا بقية غير قليلة منهُ فيجب ان لا نهملهُ بل ان نقويهُ ونجعل مستقبلنا في هذه الحرف الثلاث وان وجدنا في بدء الامر انهُ يصعب علينا السير في هذا السبيل نظراً الى قلة وسائلنا فلا يجوز ان نقنط فاننا بعد التعب القليل والسير غير البعيد عند منعطف الوادي القريب لا نرى جبلاً كما رأينا هنالك بل سهلاً فسيح الارجاء منبسطاً امامنا كلنا لا امام البعض منا وليس في الطريق عتبات يقي عليَّ كلمة في امر آخر أليم

ان تحزباتنا الدينية في بلادنا كانت من اكبر البواعث على فشلنا في اكثر امورنا وفقرنا وتأخر حالنا . ولا اطيل الكلام في ذلك لان نتائج هذه التحزبات معلومة لدينا . وكنا ننتظر ان الذين يتغربون منا يتركون ما فرّق بينهم في بلادهم فيعيشون معاً بالوئام قائلين مع من قال

اجارتنا انَّا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

ولكن الاخبار التي تأتينا عن اخواننا المتفرقين في اميركا الشمالية والجنوبية تدل على ان اكثرهم اخذوا التحزب المذهبي معهم في صناديقهم وجعلوهُ شعاراً لهم . واذا عذرنا غير المتعلمين في ذلك فاي عذر نقدمهُ عن المتعلمين المتنورين وهم يعلمون ان كل تحزب يفرّق بينهم ويضعفهم وانهم احوج الناس الى التعاضد والتعاون

فالسوري هنالك حتى المتعلم قبل ان يمد يدهُ لمساعدة اخيهِ المحتاج يبحث ليعلم هل هو من مذهبهِ . واذا شرع اخوهُ في امر مهما كان حميد الغاية تُبطِّل همَّتهُ فيهِ بل قاومهُ اذا لم يكن من مذهبهِ . واذا نجح في عملهِ حسدهُ وتمنَّى زوال نعمتهِ زاعماً لجهلهِ ان ارتقاء اخيهِ برهان على تفوقهِ عليهِ

اذا كان اخي السوري او الشرقي ضعيف الحال رث اللباس محتقراً مهاناً وانا احسن منهُ حالاً فاني وان كنت من غير مذهبهِ فحالتهُ هذهِ لا ترفع شأني لدى الاجنبي بل تحط من مقامي . فان المقام الذي يحصلهُ الواحد منا مهما عظم يصغر بصغر ابناء بلادهِ وحقارتهم والعكس بالعكس فاذا كان اخي السوري او الشرقي مكرماً ذا مقام سام شرفت بهِ وارتفع شأني مهما كنت حقيراً وان كان مذهبهُ غير مذهبي

ويسرني ان اقول ان معظم السوريين الذين اقاموا في هذا القطر — ويسوؤني ان لا اقول كلهم — اكثرُ تسامحاً والفة بعضهم لبعض على اختلاف مذاهبهم من اخوانهم الباقين في سوريا او الذين هاجروا الى اميركا كأنهم تعلموا التسامح من اهلهِ . فعسى ان يبقى ذلك شأنهم ويزول ما عند القليل منهم من عدم التسامح ويلجأوا كلهم الى الجامعة الكبرى التي تجمعهم وكل ابناء هذا القطر والنزلاء فيهِ وهي جامعة البشرية جامعة الانسانية جامعة النوع الاكبر والاسمى نوع الانسان

أشرتُ في بدء كلامي الى ان حالتنا في بلادنا ودار غربتنا ليست على ما يرام (وليست اعدُّ مصر دار غربة فانها وطن ثانٍ لنا) واني ابشركم ان اخبار صلاح الحال تأتينا من الاستانة من يوم الى يوم مما يبعث على الامل بمستقبل كبير وان لبعض اخواننا منزلة رفيعة جدًّا في كثير من البلدان التي هاجروا اليها ففي جمهورية البرازيل يستشارون في امور الحكومة وفي الولايات المتحدة يوظفون في المناصب العالية وفي استراليا يعتمد على رأيهم في بعض المسائل الادارية وفي جنوب افريقية والترنسفال حكمت لهم محكمة الاستئناف اخيراً انهم مثل الاوربيين في كل الحقوق وما ذلك الاَّ جزاء اجتهادهم واستقامتهم واخلاصهم للبلاد التي هم فيها

وانتم يا اخواني ابناء الكلية الذين تزاتم هذا القطر لقد ربيتم على المبادئ القويمة الحقة في المدرسة الكلية فكلتي لكم ليست شيئاً جديداً اعلمكم اياهُ او اشير بهِ عليكم — كلتي لكم ليست نتيجة عملية استنتجتها بالبحث والاستقراء ولا مذهباً فلسفياً وقفت عليهِ في كتب المتقدمين او المتأخرين — كلتي لكم ليست شيئاً من ذلك . انما هي ان تذكروا ما تلقاهُ وتربينا عليهِ في امنا المدرسة الكلية . محبة الدرس محبة العمل محبة الالفة والوئام محبة القيام بالواجب واعتبار الناس كلهم اخوة لنا وان تنشروا هذه المبادئ القويمة بين مواطنينا في سوريا وهذا القطر واميركا وغيرها وان تتركوا اختلافنا الديني والمذهبي جانباً عند النظر في شؤوننا الاجتماعية جاعلين ديننا في الامور العامة حب بلادنا وحب دولتنا والاخلاص التام للبلاد التي نأكل من خيرها . فان من يأكل خبز السلطان يضرب بسيفهِ

سعيد شقير